٤ ـ ابن سينا

حياته وفلسفته

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندى
ماجستير فى الفلسفة

حياته فى الرى

لم يطل عهد مقام فيلسوفنا بجرجان ، والأرجح أنه لم يزد على العامين على الأكثر. ونحن نجد الروايات العربية كلها مجمعة على أنه خرج منها إلى «الرى» عاصمة الأمير مجد الدولة أبى طالب رستم بن فخر الدولة بن بويه ، وأنه اتصل بهذا الأمير بسبب كتب وصلت معه تنبىء بعظيم مكانته فى الفلسفة والطب ، وأن الصلة صارت بين الأمير والفيلسوف وثيقة جداً بسبب الطب أيضاً ، وأنه بقى بالرى إلى أن قصدها الأمير شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد ، وأنه تركها إلى همذان . وتلك الحوادث التى تذكرها التراجم العربية لابن سينا إنما وقعت فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . قال ابن الأثير فى حوادث تلك السنة : « لما قتل (بدر حسنويه أمير الجبل) استولى شمس الدولة أبو طاهر بن فخر الدولة بن بويه على بعض بلاده ، فلما علم سلطان الدولة بذلك أطلق هلالاً وجهزه وسيره ومعه العساكر يستعيد ما ملكه شمس الدولة من بلاده ، فسار إلى شمس الدولة فالتقيا فى ذى القعدة واقتتل العسكران فانهزم أصحاب هلال وأسر هو فقتل أيضاً وعادت العساكر التى كانت معه إلى بغداد على أسوأ حال »[1].

لا يضيف الرواة إلى ابن سينا ـ إذ كان بالرى ـ غير مصنف واحد ، هو كتاب (المعاد)، وهذا الكتاب غير (المبدأ والمعاد) الذى صنفه بجرجان للشيرازى . قال ابن أبى أصيبعة عن كتاب المعاد : « إنه صنفه بالرى للملك مجد الدولة »[2] .

ولقد تدل قلة مؤلفات الفيلسوف بالرى على أن مدة إقامته بها كانت جد قصيرة .

حياته فى همذان

تحدثنا التراجم العربية بعد ذلك بأنه انتقل من الرى إلى قزوين ، ونرجح أن ذلك كان فى أوائل عام ٤٠٦ هـ ، وتحدثنا بأنه انتقل بعد ذلك إلى همذان عاصمة الأمير شمس الدولة أبى طاهر

١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : أخبار سنة ٤٠٥ هـ جـ ٦ ص ١٧٤ طبعة أوروبا (٢) ابن ابى أصيبعة طبقات الاطباء جـ ٢ ص ١٩

ابن فخر الدولة بن بويه . وعندما كان الفيلسوف بهمذان اتفق أن مرض أميرها بمرض القولنج (المغص) فاستقدم الفيلسوف لعلاجه فعالجه وبقي في قصره أربعين يوماً وصار من ندماء الأمير . وفي عام ٤٠٨ هـ خرج ذلك الأمير إلى قرميسين لحرب من الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بنظام مستمر ، وخرج معه الفيلسوف ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وعاد الأمير إلى عاصمته منهزماً بدأت الحياة التي لم تذق فيلسوفنا طعم الراحة والاستقرار منذ أن جرفت به من بخارى إلى أن ألقته بهمذان ، بدأت تلك الحياة تبتسم فتنيله مرتبة سياسية خطيرة ، ذلك أنه صار وزير شمس الدولة . وتذكر التراجم العربية أن جنود همذان ثارت على الأمير لتقليده الوزارة لأبي علي بن سينا ، وكبست دار الوزير وأغارت على أسبابه واغتصبت جميع ما كان يملكه ، وسألت الأمير أن يقتله ، فامتنع واكتفى بنفي وزيره عن الدولة مرضاة لهم ، فتوارى الوزير أربعين يوماً في دار عين من أعيان همذان يقال له أبو سعيد بن دخدوله . وحدث أن عاودت الأمير علة القولنج فاضطر إلى استدعاء ابن سينا من مخبئه واعتذر إليه كل الاعتذار وأعاد إليه الوزارة ثانية .

ولم تذكر الروايات كلها شيئاً ما عن تاريخ وزارته : متى بدأت ؟ ومتى انتهت ؟[1] ، إلا أننا نعرف أن خليفته في الوزارة كان « تاج الملك » ، ونحن نجد في كتاب الكامل لابن الأثير في أخبار سنة ٤١١ هـ ذكراً لتاج الملك وإشارة تدل على أنه كان وزيراً في ذلك الحين مما يجعلنا نرجح بل نؤكد أن وزارة أبي علي بن سينا كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ (٤١١ هـ) من غير شك ، كما أنها كانت قد بدأت بعد عودة الأمير شمس الدولة منهزماً من حروبه بقرميسين عام ٤٠٨ هـ .

ونحن لا نعرف شيئاً قيماً عن حياة فيلسوفنا أثناء تقلده الوزارة ، كما لا نعرف شيئاً ما عن حكومة الفيلسوف : هل حاولت أن تحقق أنظار الفارابي في « المدينة الفاضلة » أم أنها سارت على أسلوب الحكم المعروف آنئذ ؟ على أن التاريخ سجل للحوادث الشاذة لا الحوادث المضطردة ، فلو أن الفيلسوف شذ في أسلوب حكمه عن الأساليب المعروفة آنئذ لما نسي التاريخ أن يسجل له هذا الشذوذ .

ويصف لنا نظامي عروضي السمرقندي في القصة الثامنة والثلاثين أسلوب حياة الوزير اليومية ، فيقول : « وكان أبو علي بن سينا في ذلك العهد وزيراً ، وكان ملك الملوك شاهنشاه علاء الدولة محمد بن دشمنزيار يجله كثيراً فألقى مقاليد الأمور بين يديه ووكل كل شيء إلى حكمته ، ولم يكن منذ الإسكندر الأكبر الذي كان أرسطاطاليس وزيره ملك استوزر أحداً مثل أبي علي . وحين كان وزيراً كان يستيقظ كل يوم قبل الفجر ليكتب بضع صحف من الشفاء ، وعند الفجر يستقبل تلاميذه وهم : بهمنيار كياريس ، وأبو منصور بن زيلا ، وعبد الواحد الجوزجاني ، وسليمان الدمشقي ، وأنا أبو كالنجار (راوي هذه القصة) ، وكنا نتلقى عليه العلم حتى يصبح الصبح

(١) حتى كتب تاريخ الوزارات كالكتابي الصابي والجهشياري قد صمتا عن وزارة ابي علي بن سينا صمتاً تام

فيصلي بنا إماماً . وعند ما نخرج كان يلقانا بالباب ألف من الفرسان بينهم وجوه الدولة وأعيانها وأصحاب الحاجات ، فيركب الوزير فرسه وتتبعه هذه الحاشية حتى أبواب ديوانه ويبقى الوزير في الديوان حتى الظهر ثم يعود ، وكان يتناول الغذاء على مائدته خلق كثير ، وكان يقيل قيلولته ثم يستيقظ ليؤدي صلاة العصر ، ويلزم الأمير بعد ذلك ويتحدث وإياه حتى بعد صلاة المغرب ؛ ولم يكن يتدخل بينه وبين الأمير في الشئون الخاصة بالدولة شخص ثالث ...[١] ».

ورغم أن هذه الرواية تصور لنا أسلوب حياة وزيرنا اليومية فإنها محشوة بالخلط والأغلاط ، فهي تذكر لنا أنه كان وزيراً لعلاء الدولة ، والواقع أن علاء الدولة لم يكن بهمذان ولم يستوزر فيلسوفنا وإنما كان الفيلسوف وزيراً لشمس الدولة . هذا وبينما تقول هذه الرواية إن الفيلسوف كان يلقى دروسه صباحا إذ بنا نجد البيهقي يقول : « فكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم وأبو عبيد [الجوزجاني] يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومي من القانون نوبة ، وابن زيلا يقرأ من الإشارات نوبة ، وبهمينار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة ».[٢]

ولا يسلم هذا النص من التجريح أيضاً ، فإنه يشير إلى أن ابن زيلا كان يقرأ الإشارات وهذا قول باطل على ما يظهر ، لأن كتاب الشفاء لم يكن قد تم بعد ، ولم يكن قد شرع في كتابة « النجاة » ، فكيف بتلميذه يقرأ من كتاب صنف بعد الشفاء والنجاة ؟ ذلك لأن الإشارات كما يقول ابن أبي أصيبعة : « هي آخر ما صنف في الحكمة »[٣] ، ويؤخذ مثل هذا المعنى من كلام ابن سينا نفسه في بعض رسائله . كذلك يشير النص الأخير إلى أن بهمنيار كان يقرأ « الحاصل والمحصول » ، وهذا الكتاب — كما تقدم في المقال الثاني[٤] — صنفه فيلسوفنا ببخارى لأبي بكر البرقي كما صنف له « البر والإثم » ، وقد قال ابن سينا عن هذين الكتابين : « لا يوجدان إلا عنده (أي البرقي) فلم يعرهما أحداً ينتسخ منهما »[٥] ، ومالا يوجد إلا لدى البرقي ببخارى لا يمكن طبعاً أن يقع بين يدي بهمنيار بهمذان .

ولعل الذي يصحح روايتي السمرقندي والبيهقي قول القفطي : « وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم ، وكنت[٦] أقرأ من الشفاء نوبة وكان يقرأ غيري من القانون نوبة[٧] ».

تلك صورة من حياة الفيلسوف الوزير ؛ ولما أن أفيل من وزارته — وكان ذلك (كما رأينا) قبل عام ٤١١ هـ — ظل حفيظاً على ولائه للأمير شمس الدولة ونديماً من ندمائه . ولما أن توفي

١) السمرقندي : المقالات الاربع . الترجمة الانجليزية ص ٩٢ ، القصة ٣٨
٢) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام . ص ٣٣
٣) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩
٤) مجلة المعرفة : عدد اغسطس سنة ١٩٣٣ ص ٢٨٥
٥) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٤١٧
٦) أي الجوزجاني
٧) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٤٢٠ .

شمس الدولة عام ٤١٢ هـ طاب الجنود إلى الأمير الجديد سماء الدولة بن شمس الدولة استوزار أبي على بن سينا فأبى عليهم الأمير ذلك . فاستاء الفيلسوف من مسلك سماء الدولة نحوه وأصبحت الحياة عبئاً ثقيلا على نفسه بهمذان ، وفكر في أن يخرج منها إلى أصفهان عاصمة علاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه ، فاحتجب في دار رجل من أعيان همذان يقال له أبو غالب العطار زمناً طويلا مشتغلا بالتأليف . وهنا في هذه الدار أتم ابن سينا معظم أجزاء أكبر موسوعة فلسفية في الإسلام ، ألا وهي كتاب «الشفاء» الذي يقع في ثمانية عشر مجلداً ، على أن شغله الشاغل آنئذ كان التحاقه ببلاط أصفهان ؛ ولذلك فقد كان يكاتب سراً الأمير علاء الدولة يطلب خدمته والمسير إليه . ولسوء حظ الفيلسوف أن أماط تاج الملك وزير سماء الدولة اللثام عن أمر تلك المكاتبة فألقى عليه القبض واعتقله بقلعة فردجان [1] ومعه شقيقه محمود وتلميذه الجوزجاني ؛ وفي هذه القلعة أنشأ قصيدة منها :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

ولقد أوقف الفيلسوف السجين حياته للتأمل والتأليف : فصنف بفردجان أولى رسائله الرمزية في الفلسفة ، ألا وهي « حي بن يقظان » ، وصنف بها كتاب « الأدوية القلبية » ، وكتاب « الهداية » وغير ذلك من المؤلفات . وبقي بهذه القلعة محبوساً أربعة شهور نشبت في أثنائها حرب بين علاء الدولة وسماء الدولة انهزم فيها الأخير ، وعند عودته إلى همذان مر بقلعة فردجان فأخذ الفيلسوف معه إلى عاصمته ، ونزل الفيلسوف هذه المرة بدار رجل يقال له « العلوي » وتظاهر بالاعتكاف للعلم والتصنيف ، على حين كان يعد عدته للانتقال من همذان ، ولم يطل مكثه في هذه الدار إذ انسل متنكراً في زي الصوفية بصحبة أخيه محمود وتلميذه الجوزجاني وغلامين يقومان بخدمته ميمما شطر أصفهان عاصمة علاء الدولة . ويظهر أن انسلاله ذلك إنما كان في عين السنة التي حبس فيها بفردجان والتي نشبت في أثنائها الحرب — التي تقدم ذكرها — بين أميري كاأصفهان وهمذان ، فهذه الحرب قد وقعت عام ٤١٤ هـ كما جاء في كتاب « الكامل » لابن الأثير في أخبار تلك السنة ، فإنا نرجح أن آخر عهد فيلسوفنا بهمذان إنما كان هذا العام .

ولاشك أن أسعد أيام حياته إنما رآها بهمذان ، ولكنه رأى فيها أيضاً أتعس أيام الحياة ، حين عبس الزمان في وجهه واقتاد بفردجان سجيناً . ومؤلفاته بهمذان كثيرة مهمة خطيرة بقدر ما كان خطيراً في الدولة ؛ ذلك لأنه أتم بها « القانون » عمدة الطب في القرون الوسطى شرقاً وغرباً ، ووضع برنامج الشفاء وحقق منه أعظم أجزائه ، وكتب تلك الرسائل التي تضاف إليه حين كان بفردجان ، ولعل من أهم كتبه بهمذان كتاب في الاقتصاد السياسي وفن السياسة لم يبق لنا منه غير اسمه وهو « تدبير الجند والمماليك والعساكر وأرزاقهم وخراج الممالك » ، ويفهم من العنوان أنه كتاب أملته عليه التجارب الوزارية .

(1) يقول ابن الأثير : « فردجان على بعد خمسة عشر فرسخاً من همذان » الكامل ، ج ٦ ص ٢٨٥ طبعة أوبالا

حياته في أصفهان

لقد قضى أبو علي بن سينا أربع عشرة من السنين في كنف علاء الدولة بأصفهان، ومع ذلك لم يبق لنا من أخباره في أثنائها غير نذر يسير من القصص التي لا تملأ هذا الفراغ الواسع من الزمان.

ولعل الأمير الوحيد الذي اتصل به فيلسوفنا بسبب آخر غير الطب هو علاء الدولة أمير أصفهان، فلقد كان هذا الأمير ميالا بطبعه إلى العلوم العقلية محباً للفلاسفة، ولقد اتهم بسبب ذلك في عقيدته الدينية. قال ابن الأثير: «وكان ابن سينا يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه، ولاشك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده»[1]. ولعل مما شجع ابن سينا على الاتصال بعلاء الدولة أن هذا الأمير كان الوحيد الذي يستطيع أن يحتمي به ابن سينا من أي اعتداء كان قد يصيبه من السلطان محمود بن سبكتكين الذي استفحل أمره إذ ذاك وصار سيد ملوك فارس ومطموح عروشها. قال البيهقي مشيراً إلى تكافؤ أميري أصفهان وغزنة: «وكان السلطان محمود وابنه مسعود لا يعدان واحداً من الملوك من أقرانهما وخصمائهما سوى علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه».[2]

ولقد اشترك ابن سينا في الخصومة التي كانت بين أميري أصفهان وغزنة — عند ما كان أمير هذه الأخيرة هو السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين — بما يمكن لمثله أن يشترك به، ذلك لأنه عندما انتصر السلطان مسعود في حروبه على علاء الدولة ودخل أصفهان أسر أخت علاء الدولة وحملها معه إلى غزنة ليرغم أخاها على تسليم ولاية من ممتلكاته فدية لها. وهنا يتدخل الفيلسوف في الأمر فيحله بما أوتي من ذكاء وفطنة، فيكتب إلى السلطان مسعود ويقول له: إن تزوجت بهذه المرأة يسلم علاء الدولة إليك الولاية. فتزوجها سلطان غزنة ثم طالب أمير أصفهان بالبر بالوعد أو أن يسلم أخته إلى عساكره يعتدون عليها. فيكتب ابن سينا إلى سلطان غزنة يقول: «إن كانت أخت علاء الدولة فهي زوجتك، وإن طلقتها فهي مطلقتك، والغيرة على الأزواج لا على الإخوة»[3]، فأنف السلطان من ذلك ورد أخت علاء الدولة عليه.

ويروي البيهقي أن علاء الدولة أهدى ذات مرة منطقة مفضضة بسكاكينها لأبي علي، ثم رآها فيما بعد لدى غلام من غلمان الفيلسوف، فغضب على تفريط أبي علي في هديته غضباً شديداً وأمر بقتله بعد أن صكه بكفه، ففر أبو علي إلى الري في زي المتصوفة وليس معه شيء ينفقه على نفسه، ودخل السوق باحثاً عن أروج حرفة يمكن أن يتخذها لنفسه، فبعد بحث وتفقد وقع بصره على شاب رفاه يعرف الكهانة والتنجيم يحيط به خلق كثير بينهم امرأة تطلعه على تفسرة[4]

---

١) ابن الاثير: الكامل ج ٦ أخبار سنة ٤٢٨ هـ

٢) البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٥

٣) البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٧ — ٣٨، والشهرزوري: تاريخ الحكماء ص ٣٢٩

٤) هكذا في الأصل. في لسان العرب: وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرة.

فقال لها الرقاء: أليست تفسرة يهودي؟ قالت: هو كما تقول. قال: وقد تناول رائباً !؟ قالت: نعم. فقال: داركم في موضع منخفضة في المدينة !؟ قالت: صدقت، فتعجب ابن سينا من أمر ذلك الرقاء. فلما أن نظر الرقاء إلى وجهه قال له: إنك أبو علي بن سينا الفيلسوف، فاستولى الذهول عليه من شدة العجب، ولما فرغ الرقاء من عمله سأله الفيلسوف عن أمر التفسرة وكيف عرفها، فنظر إليه الرقاء وقال: عرفت أنها تفسرة يهودي لأني رأيت في يدها قميصاً عليه غبار اليهود، ورأيته ملوثاً بشيء من الرائب فحدست أنه تناول منه شيئاً، واليهود جميعاً يسكنون الجانب المنخفض من المدينة، فعرفت بذلك أين تكون دارها. قال له ابن سينا: وكيف عرفتني؟! قال: كنت أسمع بجلالك وحسن هيئتك وفطانتك، فلما رأيتك حدست أنك ابن سينا هارب من علاء الدولة، وإني لأعرف أنه يزول غضبه عليك ويشتاق إلى منادمتك، فرجائي إليك أن تقص على الأمير أمري لعله يستظرفني للمنادمة أيضاً. وبعد مضي أيام قلائل عفا الأمير عن نديمه الفار واسترجعه وخلع عليه، فقص ابن سينا عليه قصة ذلك الرقاء، فارتضاه الأمير وصار ذلك الرقاء من ندمائه.

لا نستطيع أن نحدد نصيب هذه القصة من الصحة، لأن القصص التي تنتحل على العظماء أكثر مما هم في الحقيقة، ثم لأن في هذه القصة بالذات تبدو الصنعة القصصية ظاهرة جلية، إلا أننا نستطيع أن نستشف من ثناياها بعض الشيء عن مقام الفيلسوف في المجتمع الذي كان يعيش فيه، وعما كان يتمتع به من شهرة ذائعة وصيت بعيد.

ويخطىء صاحب «المقالات الأربع» فيقول في القصة الثامنة والثلاثين راوياً عن تلميذ من تلاميذ الفيلسوف، هو أبو كاليجار: إن ابن سينا كان وزيراً لعلاء الدولة بالري. وفي هذه الرواية خطأ بين، فأولا لم يكن قط علاء الدولة أميراً بالري، وثانياً لم يرو ألصق الناس به — ألا وهو الجوزجاني — أن أستاذه كان وزيراً لعلاء الدولة كما كان وزيراً لشمس الدولة بهمذان، وكل ما يعرف عن صلة الفيلسوف بعلاء الدولة أنه كان نديماً للأمير، بل أخص ندمائه الذين يلزمونه في السلم وفي الحرب، وكان — حين تنعقد مجالس النظر بين يدي أميره — الشخص المقدم على جميع العلماء، يقول البيهقي واصفاً ابن سينا في مجالس العلم بحضرة علاء الدولة: «وكان أبو علي يحضر مجالس علاء الدولة وعليه قباء داري وعمامة خيش وخف أديم، ويجلس بين يديه قريباً منه... فإذا تكلم بين يديه استمع أهل المجلس لا ينبسون بحرف».(١)

أما من الوجهة العلمية فقد كانت حياة الفيلسوف بأصفهان زاخرة مليئة بالتجديد، فقد أعاد دراسة اللغة العربية وآدابها وصرف في ذلك زهاء الثلاث سنين، وقد مارس عملياً علم الفلك وقام بأرصاد مختلفة، وذلك لأن علاء الدولة عني بإصلاح الخلل الواقع في التقاويم القديمة، وأطلق لأبي علي من الأموال ما يحتاج إليه، فأخذ هذا يعمل ثماني سنين بمعونة تلميذه الجوزجاني في إصلاح تلك التقاويم، واخترع لذلك آلات راصدة لم يسبقه أحد إلى مثلها، وولى تلميذه

(١) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص ٤٠

الجوزجانى إدارة تلك الآلات واستخدام صناعها ، ويشير الجوزجانى إلى أن رصده هذا وقع فيه خلل أيضاً ، وعزى ذلك إلى كثرة أسفار الفيلسوف صحبة علاء الدولة فى حروبه الكثيرة .

وفى غير اللغة والفلك اشتغل ابن سينا بالفلسفة أيضاً ؛ فأتم بأصفهان كتابه المسمى «الشفاء» ، وكتب له ملخصاً هو «النجاة» . قال عنه الجوزجانى : « صنفه فى الطريق فى السنة التى توجه فيها علاء الدولة إلى سابور خواست [أى سنة ٤١٨ كما جاء فى ابن الأثير] »[١] ، وكتب بعد ذلك كتابه المشهور باسم «الإشارات والتنبيهات» ، وصنف أيضاً كتابه «الإنصاف» فى الفلسفة ، وكان يقع فى عشرين مجلدة ، قال عنه ابن أبى أصيبعة : « شرح فيه كتب أرسطو وأنصف فيه بين المشرقيين والمغربيين ضاع فى نهب السلطان مسعود[٢] » ، كذلك صنف لعلاء الدولة أهم كتبه المكتوبة بالفارسية « دانش نامه العلائى »[٣] وقد يكون هذا الكتاب أول مصنف فى الفلسفة باللغة الفارسية ، ولاشك أن للفيلسوف بأصفهان ـ غير تلك الكتب ـ رسائل هامة فى مختلف العلوم ، ويمكن مراجعة ذلك فى ثبت آثاره العلمية التى سنتحدث عنها فى مقال آخر .

وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة الجليلة المضطربة أخذت شمس حياته التى تألقت فى سماء فارس ثمانى وخمسين سنة تنحدر بسرعة نحو مغربها ، فلقد مرض بالقولنج وهو بصحبة علاء الدولة عند خروجه لمحاربة تاش فراش ، وتقول الروايات العربية إنه لشدة حرصه على برئه ـ خشية من هزيمة يدفع إليها ولا يستطيع المسير فيها مع المرض ـ حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى مرات ، فتقرحت بعض أمعائه وظهر به سحج[٤] ، ثم ظهر به الصرع الذى يتبع عادة القولنج ، فظل يدبر أمر جسمه بخبرته وطبه ؛ فأمر طبيبه باتخاذ دانقين من بذر الكرفس فى جملة ما يحقن به طلباً لكسر ريح القولنج ، فأخطأ الطبيب إذ وضع من ذلك البذر خمسة دراهم فازداد المرض حدة . يقول الجوزجانى : « لست أدرى أعمداً فعل ذلك أم خطأ ، لأنى لم أكن معه ، وكان يتناول دواء المثرود يطوس لأجل الصرع ، فطرح بعض خدمه شيئاً كثيراً من الأفيون فيه وناولوه إياه يريدون إهلاكه ، وسبب ذلك أنهم خانوه فى أموال كثيرة اختلسوها من خزانته ولم يجدوا وسيلة إلى إخفاء الجريمة غير وفاته » .

نقل الفيلسوف وهو على هذه الحال إلى أصفهان حيث نشط فى معالجة نفسه حتى قدر على المشى وأخذ يحضر مجلس علاء الدولة ، وهو مع ذلك كثير الخلط فى أمر المعالجة[٥] فلم يبرأ من علته تمام البرء ، فكان ينتكس ويبرأ بين حين وآخر .

---

١) ابن الاثير ـ الكامل : أخبار سنة ٤١٨ هـ (٢) ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ـ ص ١٨

٣) طبع هذا الكتاب بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ — ١٨٩٢ م) (٤) السحج : الحدش

٥) « المعالجة » فى أكثر النسخ : فى أمر « المجامعة » ، الا البيهقى الذى يقول المعالجة ، وهذا القول أقرب الى الصحة للقرينة : فان التخليط لا يكون الا فى الادوية اللازمة للمعالجة .

ولما قصد علاء الدولة إلى همذان لحرب نشبت بينه وبين أميرها صحبه الفيلسوف في رحلته؛ وهنا عاود المرض الفيلسوف في الطريق فضعف جسمه وخارت قوته ويئس من الشفاء فأهمل العلاج وأخذ يقول: « المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير ، والآن فلا تنفع المعالجة » ؛ ولبث على هذه الحال أياما معدودات ، ثم انتقل إلى جوار ربه، ويتفق الرواة جميعاً على أن وفاته إنما كانت بسبب هذا المرض؛ إلا رواية يذكرها ابن خلكان وينسبها للشيخ كمال الدين بن يونس الذي يذهب إلى أن مخدوم الفيلسوف (وهو علاء الدولة) غضب عليه فاعتقله فمات في السجن وهو ينشد :

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفاء ولم ينج من موته بالنجاة

وبطلان هذه الرواية مما لا مجال للشك فيه : ذلك لأن الجوزجاني ينسب هذين البيتين إلى رجل من معاصري الفيلسوف لا إليه نفسه ، ولعل قصة غضب الأمير عليه واعتقاله في سجن ؛ ووفاته بذلك السجن إنما تولدت في خيال الشيخ كمال الدين بن يونس من تورية في البيت الأول ؛ إذ أن لفظ « الحبس » يعني السجن ، ويعني أيضاً انحباس البطن من القولنج ، وتفسير اللفظ بالمعنى الأول جائز ؛ إلا أنه ليس أقرب إلى الواقع من تفسيره بمعناه الثاني .

أما موضع وفاته ووقتها فيذكر الجوزجاني أنه توفي بهمذان وقبره تحت السور من جانب القبلة ، وذلك في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، ويزيد البيهقي على ذلك أن وفاته كانت في الجمعة الأولى من رمضان من تلك السنة .

وهناك رواية ثانية هي رواية عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير الذي يقول : إنه توفي بأصفهان ـ لا بهمذان ـ وذلك في نفس العام المذكور ولكن في تاريخ أسبق ؛ قال : « وفي شعبان توفي أبو علي بن سينا الحكيم الفيلسوف المشهور صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة وكان موته بأصفهان »(1) . وهناك رواية ثالثة تتوسط بين الروايتين السالفتين فتقول إنه توفي بعيداً عن أصفهان ثم نقل إليها فما بعد ودفن في موضع بقرب باب كونكنبذ ، وترد هذه الرواية في « طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة »(2) .

إلا أن ابن خلكان يرجح الرواية الأولى ويغلبها ويقول إنها الأشهر ، وهي تتمشى في الحقيقة مع منطق الحوادث التي ذكرها الجوزجاني عن حياة أستاذه الأخيرة عند ما يشير إلى أنه توفي لما كان يسير بصحبة أميره إلى همذان بمناسبة حرب نشبت عام ٤٢٨ هـ .

اضطراب في الحياة واضطراب في الممات ! أو ليس من سخرية القدر أن يكون قبر أعظم من أنجبتهم فارس وأشهر أعلامها مجهولا منذ القرون الأولى ؟ !

محمد ثابت الفندي

[للبحث بقية]

---

(1) ابن الأثير الكامل ج ٩ ـ أخبار سنة ٤٢٨ طبعة أوروبا (2) ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء ج ٢ ط ١٩١٠ ص ١٢